المحاضرة الأولى
المصدر – مفهومه، أهميته وأنواعه

1- تعريف المصدر[1]:

يعتبر مصطلح المصدر(source) بوصفه مصطلحا عاما من المصطلحات الّتي شابها بعض اللبس والغموض جراء التباين الحاصل بين أهل الاختصاص في تحديدها وبيان معناها. ويرجع سبب هذا اللبس الّذي يعانيه المصطلح إلى عدم اتفاق الدارسين على الحدود الّتي تفصله عمّا يسمّى بالمرجع(reference)[2]. وفي هذا الشأن يتحدّث أحدهم، فيقول: "من الأمور الّتي ما تزال غامضة في أذهان بعض الدارسين، وربّما كان من بينهم المتخصّصون، تحديد المصدر تحديدا دقيقا، والتفرقة بينه وبين المرجع[3]، وبيان ما هو أساسي وأصيل أو ثانوي في كليهما"[4].

ومكمن الخلاف بين الباحثين في تحديد ماهية المصدر يتجلّى في أنّ بعضهم يربطه بالقدم، وبعضهم بالصحّة، وبعضهم الآخر بالمقولة الأولى. ولقد ناقش عدد منهم قضية القدم والصحة، حيث اعتبروا هذا الربط غير مؤسس، استنادا إلى أنّ القدم وصف عام غير مضبوط، والصحة أمر نسبي. أمّا قضية المقولة الأولى، فإنّها وإن صحة في بعض المؤلّفات، تظلّ نسبية بحكم أنّنا لا نستطيع أن نحتكم إليها احتكاما علميا نظرا لأنّه قد يصعب ثبوت المقولة الأولى في كثير من المؤلّفات، لاسيّما وأنّ المصادر لم تعد محصورة في الكتب القديمة فحسب.

وللخروج بتعريف عام وشامل لهذين المصطلحين المصدر والمرجع، نقول إنّ المصدر في شتى ميادين المعرفة هو ذلك الكتاب الّذي يبحث في علم من العلوم على وجه الشّمول والتعمّق، بحيث يصبح أصلا من أصول هذا العلم. فهو كتاب مهم وضروري لا يمكن الاستغناء عنه. أمّا المرجع فهو ذلك الكتاب الّذي يستقي مادته من غيره، فيتناول موضوعا أو جانبا منه، ليبحث في دقائق مسائله ومقاصده.

---

1 - المصدر لغة: كما جاء في لسان العرب: هو من "الصَّدْر: أعلى مقدَّم كل شيء وأَوَّله، حتى إنهم ليقولون: صَدْر النهار والليل، وصَدْر الشتاء والصيف وما أَشبه ذلك. والصَّدَرُ: نقِيض الوِرْد. صَدَرَ عنه يَصْدُرُ صَدْراً ومَصْدراً ومَزْدَراً؛ الأَخيرة مضارِعة؛ قال:ودَعْ ذا الهَوَى قبل القِلى؛ تَرْكُ ذي الهَوَى، مَتِينِ القُوَى، خَيْرٌ من الصَّرْمِ مَزْدَرَا وقد أَصْدَرَ غيرَه وصَدَرَهُ، والأَوَّل أَعلى. وعند النحويين هو صيغة اسمية تدلّ على الحدث فقط، أو على اللفظ الدال على الحدث مجردا عن الزمان متضمنا أحرف فعله فقط، وهذا ما استندت إليه مدرسة البصرة في القول في أصل الاشتقاق، الفعل هو أم المصدر، فرأت البصرة أن الفعل يؤخذ من المصدر، ورأت الكوفة أن المصدر يؤخذ من الفعل.

2 - المرجع فهو من "رَجَع يَرْجِع رَجْعاً ورُجُوعاً ورُجْعَى ورُجْعاناً ومَرْجِعاً ومَرْجِعةً: انصرف. والمَرجِعَ: مصدر على فُعْلى.

3 - يرى بعض الباحثين أنّ ماهية مصطلحي المصدر والمرجع في مجال علم المكتبات ثابت وغير متغير، لأنه لا يعتمد على نوعية المعلومات التي يحتويها الوعاء، ولا على العلاقة بين الكتاب وموضوع من الموضوعات بل يعتمد على أسس أخرى لتعريف الكلمتين. فالمراجع هي: "أوعية المعلومات التي تملك من طبيعة التنظيم ومن المعلومات ما يجعلها غير صالحة لأن تقرأ من أولها لأخرها، ككيان فكري مترابط، ولكنها تصلح ليرجع إليها الباحث أو القارئ للبحث عن معلومة أو معلومات معينة". أما المصادر فهي: "جميع أوعية المعلومات التي لا ينطبق عليه التعريف السابق من أوعية المعلومات التي يمكن أن يلجأ إليها الباحثون أو موظفي المراجع إجابة على الأسئلة المرجعية المختلفة. فالموظف أو الباحث هنا ربما يبحث في أوعية معلومات لا ينطبق عليها التعريف السابق.

4- أحمد سيد محمد: المصدر الأدبي- مفهومه وأنواع دراسته، ص25.

ملاحظة: إنّ الأساس الّذي تتحدّد من خلاله المصادر هو أصالة مادّتها، وليس شمولية موضوعها وعمقه. كما أنّ الزمن ليس معيارا للتفريق بين المصدر والمرجع، وذلك لأنّه قد يكون المصدر حديثا، والمرجع أقدم منه.

2- **قيمة المصادر وأهميتها:** ولئن كان الباحثون والمصطلحيون قد اختلفوا في وضع تعريف موحّد لماهية المصدر فإنّهم اتفقوا على قيمته وأهمّيته في شتّى ميادين المعرفة، ومن ثمّ فقد دعوا إلى توجيه العناية الخاصة لكتب المصادر[5]. ويمكن تحديد قيمة المصادر وأهميتها في النقاط الآتية:

أ- تحتوي المصادر عادة على المقولات الأولى الّتي وجب على الباحثين الرجوع إليها أوّلا، من باب العودة إلى أصل الموضوع ومنبعه.

ب- تتصف المصادر عموما بغزارة المعارف وشمولها وتنوّعها، بحيث لا تكاد شاردة ولا واردة إلاّ أحصتها، ممّا من شأنه أن يُسهل على القرّاء والباحثين في كثير من الحالات عناء البحث في العديد من المراجع المختلفة

ت- تتسم المصادر عادة بشيء من الصحة والموضوعية انطلاقا من أنّ الواقفين عليها هم من المتميّزين في ميدانهم، المتحكمين في أفكارهم ووسائلهم المنهجية.

ث- تتسم المصادر بصحة لغتها، وجمال أسلوبها، مما يمكّن قرّاءها من تصحيح لغتهم، واكتسابهم للمهارات اللغوية العالية.

3- **أنواع المصادر**:

إنّ هذا التباين في المفاهيم بين أهل الاختصاص في تحديد ماهية المصدر والمرجع قد ترك آثاره البائنة على المستوى التطبيقي حيث وقع الباحثون في اختلاف واضح في تصنيف المصادر، وفي وضع التسمية لكلّ صنف.

وإنّ نظرة حول ما وصلت إليه عمليات التصنيف في ما يتعلّق بمصادر اللغة والأدب والنقدلتكشف- بما لا يدعو إلى الشكّ- عن تحوّل يفتقر إلى أساس منهجي واضح. فإذا كانت التصنيفات الأولى الّتي اتكأت على مسألة القدم قد وفقت، بشكل ما، في وضع أساس منهجي واضح للتصنيف حيث صنفّت مصادر الأدب إلى مصادر شعرية ومصادر أدبية عامة، ومصادر اللغة إلى مصادر لغوية ومعاجم، فإنّ الدراسات الّتي حاولت أن تخرج على هذا التصنيف ولاسيّما منها الدراسات الّتي وسعت دائرة المصدر، لتشمل أيضا الكتب الحديثة والمترجمة، لم توفّق في تصنيفها حيث بدا عليها التسرع في الحكم، وتساهل في التصنيف. ولئن كان خطأ بعض الدراسات طفيفا من حيث فقدان تصنيفها لأساس واضح يستجيب للمعايير العلمية الدقيقة لعملية التصنيف نحو ما قام به الدارسون مصطفى الشكعة وسعيد حسن البحيري، فإنّ دراسات أخرى لم توفّق كثيرا في تصنيفها.

[5]- محمد ماهر حمادة، المصادر العربية والمعربة، ص12.